٨٦٥/١/١٤

العدد ٦٤ / صيف ٢٠٠٤

فصول

مجلة النقد الأدبى
علمية محكمة

ملف العدد
إدوارد سعيد

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم
التاريخ /

مكتبة الروضة الحيدرية
النجف الأشرف

فصول

رئيس مجلس الإدارة
سمير سرحان

هيئة المستشارين
سيزا قاسم
صلاح فضل
فريال غزول
كمال أبو ديب
محمد برادة

رئيس التحرير
هدى وصفى

نائب رئيس التحرير
محمد الكردى

مدير التحرير
محمود نسيم

التحرير
ماجد مصطفى

المشرف الفنى
أنس الديب

السكرتارية
آمال صلاح

جمع وتنضيد
أمل على

العدد رقم ٦٤

قواعد النشر:

- ألا يكون البحث قد سبق نشره.
- يتراوح عدد كلمات البحث من ٨٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠ كلمة.
- يفضل أن يكون البحث مجموعًا بالحاسوب IBM ومرفقًا به القرص المدمج.
- على الباحث أن يرفق ببحثه نبذة مختصرة عن سيرته العلمية وملخصا وافيا.
- لا ترد البحوث المرسلة إلى المجلة إلى أصحابها، سواء نشرت أو لم تنشر.
- يخضع ترتيب النشر لاعتبارات فنية.
- تدفع المجلة مكافأة مقابل البحوث المنشورة ويحصل الباحث على نسخة من المجلة.

متابعات

طرف من نقد استشراق إدوارد سعيد: هل كان ماركس مستشرقا؟!

شعبان يوسف

لم يحظ كتاب ـ في الربع قرن الأخير ـ من اهتمام عالمى واسع، مثلما حظى كتاب (الاستشراق) للمفكر الراحل إدوارد سعيد، ولم يكن هذا الاهتمام الواسع إلا تعبيرا عن طاقة الاحتياج ـ إذا كان الاحتياج طاقة ـ فمنذ أن صدر الكتاب عام ١٩٧٨ في طبعته الأمريكية، وفى بريطانيا عام ١٩٧٩، وهو كما يقول إدوارد: "أثار الكتاب كثيرا من الاهتمام، كان بعضه عدائيا للغاية (كما كان متوقعا)، وبعضه الآخر غير متفهم، ومعظمه إيجابى وحماسى"، ومع صدور الطبعة الفرنسية عام ١٩٨٠ توالت سلسلة من الترجمات التى راح عددها يتزايد، ليرتفع ـ أيضا ـ مستوى الاهتمام والمتابعة والدراسة وإعادة النظر والمناقشات، كما ظهرت في العربية ترجمة لكمال أبو ديب، هذه الترجمة التى أثارت ـ بدورها ـ قدرا من التساؤلات اللغوية، والإشكاليات الفقه ـ فكرية، إذا صح الاشتقاق، وكان لظهور الترجمات المتوالية فيما بعد: الألمانية والبرتغالية، والإيطالية، والبولندية، والإسبانية، والكتلانية، والتركية، والسويدية (حيث تصدرت الترجمة لائحة الكتب الأكثر مبيعا عام ١٩٩٣، كما ينوه سعيد). كل هذه الترجمات، وكل هذا الانتشار أثار دهشة سعيد والناشر، اللذين تابعا توالى الترجمات التى تجاوزت تلك اللغات إلى الصربوكرواتية، واليونانية والروسية والنرويجية، والصينية، ومازال يحصد اهتمامات بالغة حتى الآن.

هذا الاهتمام الواسع التلقائى ليس للحشد المعرفى والمعلوماتى بالكتاب بل أيضا للاكتشاف المثير والعميق الذى أزاح سعيد الغطاء عنه باقتدار لم يغفره له الأعداء الغربيون والأمريكيون فيما بعد، فراحوا طوال سنوات حياة الرجل، يدبرون له المكائد.

ومن الطبيعى أن يثير هذا الكتاب/النظرية كل هذا الاهتمام عالميا، للمدى العميق الذى أعطاه إدوارد سعيد لدراسة الشرق والغرب، وبأشكال تكاد تكون جديدة، سبقتها جهود أولية ـ أشاد سعيد نفسه بها ـ لـ أنور عبد الملك وسمير أمين، واكتشاف العلاقة الوثيقة والممتدة والفاعلة بين السياسة والاستشراق، والاحتمال الأكيد لاستخدام الأولى، لإمكانيات الثانية، لذلك لم يكن ـ على مدى التاريخ ـ مطلقا الاستشراق الأكاديمى ـ الثقافى، بريئا على أى مستوى من المستويات، وربما كانت عودة سعيد إلى الجذور الأولى مثيرة هى أيضا للجدل الفكرى والسياسى وطفو قضايا/إشكاليات، من قبيل الطبائع المستبدة أو الأبدية للفروق بين الشرق والغرب، وربما لو وضعنا أيدينا

على أى فقرة من الكتاب، ستجلو هذا المجال العميق والجوهرى الذى ينبئ عن أن ثمة خطرًا ما كان كامنا، ولم يقدم أحد على تشخيص هذا الخطر، وأود أن أستعير فقرة واحدة من الكتاب كعنوان على هذا الترابط الوثيق بين مكنونات الكتاب/ النظرية، ودائرة الاهتمام الواسعة، تقول الفقرة: "إن وجود علاقة وثيقة بين السياسة والاستشراق، أو لنضع أيدينا بشكل أكثر احتراسا، إن الاحتمال الكبير لإمكانية استخدام الأفكار المستنبطة حول الشرق من الاستشراق لأغراض سياسية، هو حقيقة هامة، لكنها حقيقة حساسة جدا، فهى تثير أسئلة حول النزوع الطبيعى للبراءة أو الذنب، حول النقاء من التحيز في البحث العلمى أو تواطؤ التجمعات التى تمارس الضغوط في ميادين مثل دراسات السود ودراسات المرأة، وهى بالضرورة، تستفز شعورا بالقلق في ضمير المرء حول التعميمات الثقافية، والعرقية، والتاريخية، وحول استخداماتها، وجدواها، ودرجة الموضوعية فيها، ونواياها الأساسية، وأكثر من أى شىء آخر، فإن الظروف السياسية والثقافية التى ازدهر فيها الاستشراق الغربى تلفت النظر إلى المكانة الوضيعة للشرق، أو الشرقى، من حيث هو موضوع للدراسة، وهل بإمكان أية علاقة أخرى غير علاقة السيد ـ العبد السياسية أن تنتج الشرق المشرقن"؟

ربما لا يختلف هذا الاقتباس عن أفكار عديدة، ممنهجة في الكتاب، ومؤسسة على قاعدة متينة من البناءات النظرية التى جاء بها إدوارد سعيد، لتنظر وتحدق في البديهيات، هذه البديهيات التى تآلف معها الدارسون والباحثون، وربما استخدمها الأصدقاء والأعداء على حد سواء، فالشرق المزيف والمتواضع، والمستزلم، والتابع، ليس هو الشرق، بقدر ما هو صورة الشرق، وهناك شكلان للشرق، الشرق كما هو، هذا الذى لم تكشف عنه دراسات واكتشافات، وأبحاث ومؤلفات المستشرقين، وهناك الشرق المصنوع الروحانى والمتخلف، وغير السامى.

وبوضوح يريد سعيد أن يقول: إن كل دراسات واكتشافات المستشرقين، ما هى إلا مذكرة إيضاح لشرق ينتظر من يستفيد به، ويستثمره، ويستخدمه لصالحه، وربما ليكون الشرق هو فضاء الخيرات الواسع والمهمل ـ أيضا ـ للغرب المتقدم تكنولوجيًا، إذن على هذا الغرب أن يعمل على تغريب هذا الشرق المتعدد، وليس الواحد.

وإذا كان (الاستشراق) نال اهتماما عالميا واسعا، فهو بالتالى حظي باهتمام عربى أيضا، ربما لم يلتفت إليه إدوارد سعيد، ولم يحاول أن يفنده تفنيدا واسعا في مقالته (تعقيب على الاستشراق)، والتى نشرت في ختام الطبعة الخامسة التى أصدرتها "بنجوين" في العام ١٩٩٥، وترجمها الباحث والناقد السورى صبحى حديدى، لتنشر في مجلة (القاهرة) في مايو في العام نفسه، وبالقدر الذى تناول فيه سعيد التعقيب المحتفي بالدراسات والتعليقات والتعقيبات الغربية على كتابه، أهمل أو تجاهل المتابعات والمناقشات التى جرت عربيا على نطاق واسع، أو على الأقل وصفها أوصافا مؤسفة، ففى ذلك التعقيب يقول سعيد: "ودعونى أبدأ من أحد جوانب استقبال الكتاب، وهو الجانب الذى أشعر إزاءه بأسف بالغ وأجد أنى أبذل جهدا شاقا اليوم (في العام ١٩٩٤) للتغلب عليه، وأقصد الحديث عن اتهام الكتاب بالعداء للغرب، كما عبر بعض المعلقين المعادين أو المتعاطفين، على نحو مضلل".

وفيما يتعلق بموقع كارل ماركس في الكتاب، هذا الموقع الذى نال تقريعا مسهبا من ناقدى إدوارد سعيد الذى يقول: "حدث أننى انتُقِدت بقسوة لأننى لم أصرف انتباها كافيا إلى ماركس وكانت المقاطع التى وردت في كتابى حول "استشراق" ماركس نفسه التى حظيت أكثر من سواها باختيار منتقدىَّ الدوجمائيين في العالم العربى والهند على سبيل المثال".

لذلك سنحاول عرضَ وإضاءة بعض أفكاره، وذلك من خلال كتابات الثلاثة الأبرز، الذين تناولوا " الاستشراق".

ولنبدأ بالمفكر والكاتب العراقى الراحل هادى العلوى، والذى كانت علاقته بالشرق الأقصى، علاقة عميقة، على المستوى المعرفى والفكرى والسياسى، والتجريبى أيضا، لأنه عاش في الصين ردحا من الزمان، مكنه بشكل ما من الاقتراب من الثقافة الشرقية، وله الكتاب الأهم وهو "المستطرف الصينى" وضمنه الترجمة البديعة والأجمل لنصوص "الطاو".

يبدأ هادى العلوى تعقيبه المعنون بـ: "الاستشراق عاريا" المنشور بالعدد ١٥ بمجلة الكرمل عام ١٩٨٥، بأهمية الكشف عن خطورة دراسات الاستشراق، وشارحا للفكرة ذاتها، قائلا: "استمرت العلاقة بين "الاستشراق والشرق (المتروبول والمستعمر) على امتداد حقبة مديدة بفضل المنحى الاستزلامى للأول والضراعة الاستسلامية للثانى، بحيث تكيف الوعى الشرقى للمهمام الثقيلة التى فرضتها عليه سلطة الغرب المتفوق سياسيا واقتصاديا، وتبعا لذلك عقليا وحضاريا"، ولذلك ظل الغربى يمارس استشراقه، أو بمعنى أدق يرسم تصورا ما لهذا الشرق، وفى الوقت ذاته يحلم بسحره وخرافاته وإمكانيات غزوه والعيش فيه، والاستيلاء على كافة مقدراته ومصائره، وأيضا هذه الصورة التى رسمها للشرق، كان يرسمها قسرا وتعسفا متجاهلا حقائق، وواضعا مكانها حقائق أخرى، فمثلا عندما يكتب أحد عن تاريخ البحرين، فيسجل أن تاريخها المكتوب يبدأ من خمسمائة عام فقط، ويتجاهل المؤرخ الغربى للشرق، أو "المستشرق" مئات المصادر المدونة في العصور الإسلامية عن البحرين، ومغيبا للأحداث الجسام التى مرت البحرين بها في الجاهلية والإسلام، وحاذفا من تاريخها دولة الفقراء العلمانية التى أقامها القرامطة في البحرين.. إن المستشرق يرسم ويشيد تاريخا خاصا، للإيهام بتفوقه منذ الأزل، متجاهلا أن الوقت الذى قامت فيه تلك الدولة ـ دولة القرامطة ـ كانت أوروبا تحكم بالإعدام حرقا على من يجتهد في تأويل الكتاب المقدس.

وأيضا يشير العلوى إلى أن الزمن عندنا!! نحن العرب/ الشرقيين، ليس بأحداث تقع هنا، ولكن بأحداث تقع هناك، فالمعيار الشرقى، يقاس بالغرب، وفى أسى يقول هادى: (هكذا علمنا أساتذتنا أن نقارن مستخدمين تزمينا مقلوبا"..

ورغم أن هادى العلوى يثمن كتاب "الاستشراق" عاليا من خلال إضاءات براقة، وجمل تقريظية مطولة، مثلما يقول: "إن قدرة إدوارد سعيد، كما تجلت فى هذا الكتاب، ليست ضعيفة التأثير على أى حال. إن عمق التحليل، المستند إلى كمية هائلة من المواد، ولغة حية متدفقة، وبالارتهان مع تطلع موثق إلى استخراج مدلولات خطيرة مخفاة في أغوار البحث المبرمج بالمهارة العالية للاستذهان العربى، يعطى هذا العمل الفذ قوة تأثيرية موحدة، وكتاب "الاستشراق" يكشف ببراعاته العديدة من ألوان التحليل المعرفى التى ابتدعت لتسهيل (استعمار الشرق)، فإن العلوى لا يفتأ يوجه بعض الانتقادات الجوهرية، ولكن بشكل هادئ، ودون صخب أو عنف، وأول هذه الانتقادات تتعلق بمحاولة إدوارد سعيد البحث عن الجذور العميقة لتأصيل فكرة الاستشراق، ذاهبا إلى دانتى، حيث البحث عن الشرق يتميز بنزعة الامتلاك العميقة في الوعى الأوروبى، ولكن "العلوى" يأخذ على سعيد افتقاره الوسائل الصالحة للتعميم، ويعلق: "إن هذه النزعة الأوروبية قد لا تبلغ تأصلها إلا مع الكنيسة الأوروبية بوصفها المعبر الأوفى عن رجعية ثقافية ذات امتداد عدوانى".

المأخذ الثانى، هو المنحى التعميمى الذى ينحوه سعيد في التعامل مع المستشرقين، وإغفال أدوار بعضهم السياسية، وعلى سبيل المثال، الإعجاب لوي ماسينيون، ولا يخفى سعيد اندهاشه بروعة الأعمال التى أنجزها ماسينيون، ورغم معرفة سعيد جيدا بماسينيون، فإنه كان قليل الشك في نواياه، ويعلق "العلوى" على ذلك، بأن سعيد كان يفتقر إلى "تفاصيل أكثر عن هذا الدبلوماسى الفرنسى الذى زار بغداد عام ١٩٠٧، ووضع دراسة في لهجتها العامية، قسمها إلى لهجة الشيعة ولهجة السنة ولهجة النصارى، رغم أن هذا التقسيم كان مغرضا، لأنه من المعروف أن اللهجات

واختلافها لم يكن خاضعا لأى من الطوائف، والعقيدة الدينية، ولكنها كانت لهجات الضواحي والحارات.

ثالث هذه الاعتبارات أو المآخذ يتعلق بأن إدوارد يبالغ في "نفسنة الوقائع الاستشراقية إلى حد أن يسحبها على حدث استعمارى ضخم مثل شق قناة السويس.." ويعتبر هادى أن للاستعمار مرتكزات نفسية ـ بلاشك ـ لكن من لواحقه، وليست من مقوماته.

يسوق العلوى بعض الملاحظات الأخرى، التى ربما بسوقه إياها، يعدل من القراءة الغفل، التى لابد من تسجيل بعض الانتقادات فيها مثل:

إنه وجد صعوبة لدى المؤلف في عدم قدرته على تخطى القيود المنهجية للوسط الأكاديمى الذى ينتمى إليه، وهذه الصعوبة أوقعت سعيد في مزالق حرجة، وعلى سبيل المثال فإنه يحصر أزمة المنهج الاستشراقى في دائرة العلاقة الاستعارية المتعالية مع الشرق، دون أن يعطى كثير اهتمام لعوامل الخطأ المشترك بين المستشرق والمؤرخ الغربى.

يأخذ هادى العلوى على سعيد وضعه الفيلسوف العالمى كارل ماركس ضمن المدرسة الاستشراقية، وسنعود لتلك المسألة عندما نأتى للمناقشين الآخرين، ولكن نشير فقط إلى الفرق الذى وضعه "العلوى" بين ماركس كفيلسوف ومفكر في حديثه عن الشرق، وهيجل ـ مواطنه ـ في حديثه عن الفلسفة الإسلامية، الذى يهبط عندما يتحدث عنها إلى صحفى من الدرجة العاشرة، أما ماركس بتعبيرات العلوى فهو "فيلسوف بأفق نبى، وهو وريث فكر أوراسى متعدد الأمشاج، وهو بتمثله لمنطق البروليتاريا العالمية، لم يعد قادرا على التكلم بلسان أوروبى". ويصف هادى العلوى سعيد بأنه لا يشاطر ماركس همومه الطبقية، لذلك فقراءته لماركس متوقعة، ووضعه بين الاستشراقيين، وتخليه عن فرادته الفكرية، أمر مفروغ منه.

يأخذ "هادى" على سعيد عند حديثه عن الأساس النفسى لظاهرة العمالة في صيغة السالب والموجب، الأنثى والذكر، تبقى في حاجة إلى شىء من التخصص، لأن سعيد ـ تحدث عن الشرقى في أطلاله ـ بتعبير العلوى ـ فأوحى بشمولية المعادلة، بتعبير أو توضيح آخر، فسعيد عندما يقول إن الغرب الإمبريالى دوما يجد عملاء شرقيين يحكمون بلدانهم بالوكالة عنه، يوضح هادى أن سعيد يفصل ظاهرة العمالة عن منحاها الطبقى، ويجردها من المصالح الطبقية، قائلا: "الغرب لم يجد عاملا شرقيا أو فلاحا شرقيا مستعدا لخدمته، وإنما وجد التجار والمثقفين وعامة الأغنياء الذين اعتدنا أن نسميهم برجوازيين أو أرستقراطا، فهؤلاء وحدهم الذين درسوا الغرب. درسوه استمتعوا بخيراته. قلدوه. ادخلوه في بيوتهم. ولفوه على أجسادهم، وهذا ما لم يعرفه العامل الشرقى أو الفلاح الشرقى.

والآن ننتقل إلى عرض موجز لأفكار وانتقادات اللبنانى مهدى عامل، المفكر وعضو الحزب الشيوعى اللبنانى، والذى اغتيل في بيروت ١٩٨٧.

وبحكم انتماء مهدى عامل (حسن عبد الله حمدان). الرفيق طارق، إلى حزب الطبقة العاملة، فهو قصر مداخلته حول، وضعية كارل ماركس في كتاب إدوارد سعيد، ووضع كتابا كاملا ووضع له عنوان: "ماركس في استشراق إدوارد سعيد"، وفى عنوان أقل بروزا وضع عنوانا آخر يقول: "هل القلب للشرق والعقل للغرب"، وصدر هذا الكتاب عن دار الفارابى عام ١٩٨٥، وبعد ذلك صدر في طبعات أخرى.

والكتاب يعتبر مناقشة واسعة لموقف إدوارد سعيد إزاء ماركس، والماركسية، التى يختبئ عداء سعيد لها تحت جلد انتقاده لماركس، أو نسبه للاستشراق، وربما ـ أيضا ـ يظهر هذا العداء في مناطق أخرى ويتضح، حيث أن النظرة المثالية التى تحكم منهج إدوارد سعيد، لابد أن تحتم عليه قراءة ماركس بهذه الطريقة.

ويحصر مهدى قراءته الواسعة لموقف سعيد، على أربع صفحات فقط، هذه الصفحات التى ورد فيها ماركس مجلودا بقلم إدوارد سعيد، ومجردا وعاريا من فرادته الفكرية والطبقية، والمقاومة بعبقرية منهجية لأبناء ومفكرى وسياسيي أوروبا في ذلك الوقت، إلا أن سعيد يدخله ـ حسب منهجه وموقفه المثالى ـ في زمرة الاستشراقيين، دون هوادة.

هذه الصفحات التى يناقشها مهدى عامل، تقع في الترجمة التي قام بها الناقد السورى كمال أبو ديب، وتنحصر في الصفحات من ١٧٠ إلى ١٧٣، والتى يقتبس فيها سعيد بعض أفكار كارل ماركس التى أوردها بصدد مناقشته المسألة الآسيوية، وربما تكون أفكار كارل ماركس في تلك الموضوعة، باتت محل خلاف دائم ومتجدد، حتى بعيدا عن تلك المناقشات التى أثارها سعيد ومناقشوه، أو بالأحرى منتقدوه.

إن كارل ماركس وقف مندهشا وحائرا أمام نمط الإنتاج الشرقى الذى لاحظ أنه يختلف عن أنماط الإنتاج التى تم إنشاء فكره عليها، وربما هذه الحيرة هى التى وضعت ارتباكات ماركس ذاته أمام المسألة برمتها، ولم يعط إجابات نهائية حول هذه المسائل، التى اجتهد مفكرون وباحثون آخرون، وعلى رأسهم الباحث الإنجليزي هوبز باوم، الذى قدم بعض دراسات ماركس المجهولة، وعلى رأسها (أشكال إنتاج ما قبل الرأسمالية)، وأيضا خاض الماركسيون الفيتناميون بحث مسألة نمط الإنتاج المحيرة في آسيا، ووصفها البعض وصفا جغرافيا، بأنه (نمط إنتاج آسيوى).

يأخذ مهدى على سعيد في بداية كتابه أن سعيد عندما يقول: "كان ما حققه المستشرقون الأوائل، وما استغله الذين لم يكونوا مستشرقين في الغرب، تموذجا مصغرا للشرق ملائما للثقافة السائدة الطاغية وتفسيراتها النظرية، ثم العملية في أعقاب النظرية مباشرة".

فسعيد يجانبه الصواب عندما يضعنا أمام فكرة "ثقافة الغرب" بشكل مطلق، ولا يحدد طابعها الطبقى والتاريخى، ولكنه يتكلم طوال الوقت عن الثقافة الأوروبية الغربية وكأنها "الثقافة الطاغية" من حيث هى ثقافة غربية، لا من حيث هى الثقافة البورجوازية المسيطرة، ويعلق العلوى: "وبانتفاء طابعها الطبقى التاريخى في تحديدها السعيدى هذا، تنتفى إمكانية وجود نقيضها نفسه"، فتكتسب بهذا الانتفاء طابعها الشمولى، والذى به تحتل كامل الفضاء الثقافى، وهذا ما تطمح إليه، من موقع وجودها المسيطر بظهورها بمظهر الثقافة الواحدة بالمطلق، حسب مفردات مهدى عامل ذاته.

وكما تحكم وجهة نظر سعيد النظرة الكلية للثقافة الغربية، كثقافة غربية مطلقة، ذات طابع قومى وشمولى، وربما دينى أيضا، فتحكم وجهة نظر مهدى منطلقات مضادة ونقيضة، باعتبار أن هذه الثقافة التى يعمم لها إدوارد سعيد بأنها غربية، تصير عند عامل ثقافة بورجوازية، ذات منحى طبقى تاريخى، وبالتالى يمكن وجود النقيض الطبقى لها، وهذا ما لم يتطرق إليه نص سعيد على الإطلاق.

في الفصل الثانى من كتابه، لا يأخذ مهدى على سعيد أنه يسىء فهم ماركس، فحسب، بل لأنه يكشف عن بنية الفكر الذى يؤول به إدوارد سعيد النص الماركسى، من جهة الشعور، العاطفة، الإحساس، أى بكلمة واحدة، من جهة القلب يخرج ماركس، على بنية الفكر الاستشراقى لكنه يعود، من جهة العقل، فيندرج فيها، كأنه في صراع بين القلب والعقل، كأن القلب للشرق، والعقل للغرب، وينتقد مهدى، العمومية التى ينطلق منها سعيد، ويكرس لها قراءته كلها للاستشراق، ويدرج كارل ماركس في هذه القراءة معتبرا إياه مفكرا استشراقيا، لم يستطع أن يفلت من ذلك المنحى، رغم تاريخه في الانحياز الطبقى لكادحى العالم، وربما المقاربة التى أجراها سعيد بين ماركس.وماسينيون في نصه، هى التى تناولها أكثر من باحث، ووجهوا سهام النقد الحادة لسعيد، فكما يتحدث ويقرر عدم استطاعة أى باحث، حتى لو كان ماسينيون،

أن يقاوم ضغوط أمته، أو ضغوط التقليد البحثى الذى يعمل في سياقه، بما فيهم كارل ماركس، الذى يصح وينطبق عليه تقرير إدوارد سعيد، فلا يستثنيه سعيد من تلك الدائرة الاستشراقية، ويوضح سعيد أن الضغوط التى يتعرض لها الباحثون والمفكرون ليست ضغوطا فكرية فحسب بل هى ـ كما في النص السعيدى ـ أيضا سياسية، وغير سياسية، بحسب هذا المبدأ القومى.

وفى الفصل الرابع الذى اختار مهدى له عنوان (ماركس في تأويله السعيدى) ينفى مهدى عامل النظرة الأسوأ التى يراها سعيد لماركس، ويعتقد أن ماسينيون كان أكثر خطا في التناول السعيدى، فماركس لم يحظ بالإطراء الذى أغدقه سعيد على ماسينيون، ويقتبس مهدى فقرة مطولة من ماركس، وهى الفقرة التى بنى عليها سعيد وجهة نظره لماركس، وأيضا الماركسية فيما بعد، هذه الفقرة تدور حول ما كتبه كارل ماركس في عام ١٨٥٣، وملخصها أن ماركس قد رأى أن ثمة تنظيمات اجتماعية ذات نظام أبوى سوف تنحل في الهند، وبالتالى فهى غير قادرة على إنجاز أى بعد ثورى هناك، وبالتالى فإن انجلترا وهى التى تمارس الاحتلال في الهند، فهى مرشحة لكى تحدث ثورة اجتماعية في الهندستان، ويشدد ماركس على جملة لافتة وهى (مدفوعة بأكثر المصالح قذارة، كما كانت حمقاء في الطريقة التى بها فرضت هذه المصالح)، وفى نهاية الفقرة، يستدعى ماركس بيتا من الشعر لجوته يقول فيه:

"أينبغى إذن لهذا التعذيب أن يعذبنا
مادام يهبنا متعة أعظم؟
أو لم تُفترس أرواح لا تحصى دون قيد عبر حكم تيمورلنك".

وحقا يحاول سعيد أن يبرز أشياء في نص ماركس، ويخفى أشياء أخرى، محاولا دمغ كلية ماركس بفكره ومنحاه وتوجهاته بالاستشراق، ويأخذ مقاطع منفصلة عن سياقاتها، ليسعفه في تأكيد نظريته عن الاستشراق، وربما يكون ماركس هو النموذج الاستثنائى الذى لم يفلت من دائرة سعيد البحثية حول الاستشراق، وربما أدخله سعيد في هذه الدائرة ولم يترفق به، كما ترفق مع نماذجه الأخرى مثل هاملتون جب، أو لوي ماسينيون وآخرين.

ويريد سعيد أن يفهم بطريقته، وبمنهجه، وهو يلبس ذلك المنهج أى مادة بحثية، حتى لو طالت أو قصرت، فإنها ثيابه المنهجية لابد أن تليق بأى جسد، فعندما يقول ماركس: "إن على انجلترا أن تحقق في الهند رسالة مزدوجة: الأولى تدميرية، والثانية إحيائية تجديدية ـ إفناء المجتمع الآسيوى ـ وإرساء الأسس المادية للمجتمع الغربى في آسيا".. فيعدها سعيد ـ جوهريا ـ جزءا من الاستشراق الرومانسى الخالص، متجاهلا ـ تماما ـ الديالكتيك الذى تقوم عليه النظرية المنهجية للماركسية، وهى الصيرورة التاريخية، وأن كل طبقة تخلق داخلها عوامل فنائها.

على أى حال فإن كتاب مهدى عامل، يناقش أفكار سعيد حول وضعية كارل ماركس في "استشراقه" ناعيا هذه النظرة المغرضة، والمنحى الفوكوى الذى استند إليه سعيد، مقسما العالم إلى ثنائيات، ربما تكون مثالية، هى بطبيعة الحال معادية لأى نظرة أو منهج طبقى تاريخى اجتماعى، مثل المنهج الماركس، لأن سعيد لا يناقش ماركس فحسب، بل هو يمد الخيط على آخره، ويعممه على المنهج الماركسى ككل، بل أيضا هو لا يناقش المنهج الماركسى تاريخيا، بل هو يناقشه في آنيته، وفى حاضره العربى، أى أن سعيد لا يقتصر على أن تكون المناقشة في إطارها النظرى الفكرى التاريخى، بل هو يمدها للعصر الحاضر، والعربى بالذات، لتصبح نظريته طرفا في صراع ـ كان ـ دائرا في الحياة السياسية والفكرية العربية.

وأود أن أختم هذا العرض بما كتبه وأشار إليه المفكر والباحث صادق جلال العظم الذى لم يكتف في تناوله لكتاب سعيد بالوقوف عند تفاصيل الكتاب، ولكنه في دراسته المعنونة بـ"الاستشراق والاستشراق معكوسا" والتى نشرها في مجلة "الحياة الجديدة" الصادرة في فبراير

١٩٨١ ببيروت، ثم ضمن كتاب "ذهنية التحريم" الصادر عن دار رياض الريس عام ١٩٩٢، لم يدخر من عدته النظرية وسيلة إلا وجربها في قراءة استشراق إدوارد سعيد.

ولم يبتعد كثيرا العظم عن مجمل الانتقادات المطروحة على قراء سعيد، وخاصة وضعية ماركس، ولكنه يذكر للعظم أنه كان الأسبق في تناوله بانتقاد "استشراق" سعيد، ويأخذ العظم على سعيد أنه يريد أن يذهب بعيدا في التاريخ ليؤصل نظريته، ويعود من الباب الخلفى ـ كما يصف العظم ـ إلى أسطورة الطبائع الثانية بخصائصها الجوهرية التى لا تحول ولا تزول، وإلى ميتافيزيقا الاستشراق، التى تقول بشكل مطلق الشرق شرق والغرب غرب، ولكل منهما طبيعته الجوهرية المختلفة المميزة، وبالتالى فإن العظم ينتقد هذه العودة التى يجريها سعيد دون أى تمييز تاريخى، ودون أن يتوقف عند أى من الذين ذكرهم وعاد إليهم، فوفقا لهذه التعميمية يتساوى الشاعر هوميروس والمستشرق هاملتون جيب مرورا بكارل ماركس، وكأنه ـ أى العقل الأوروبى ـ يتصف بنزعة متأصلة لا يحيد عنها لتشويه الآخر "الشرق" وتزييف واقعه وتحقير وجوده، كل ذلك في سبيل تمجيد ذاته، والإعلاء من شأنها وتأكيد تفوقها.

وينتقد العظم صياغات سعيد التى تعطى الأهمية والأولوية الحاسمة لكل ما هو ذهنى وخيالى ومثالى وانفعالى وتصورى في مقدمات البشرية، ويغالى سعيد في هذا الاتجاه، حيث يبدو ـ من خلال تلك التحليلات والصياغات، أن الاستشراق الثقافى ـ الأكاديمى يقوم بتحويل الواقع المعيش للشرق إلى مادة للنصوص، وبدوره يقوم إدوارد بتصعيد الوقائع الصلبة التى حكمت تفاعل الغرب مع الشرق إلى مستوى متاع الروح اللطيف.

وعرضًا يتناول العظم فقرة من كتاب سعيد حول الثقافة والتلقى ويقول فيها: "تنزع الثقافات دوما إلى فرض تحولات كاملة على الثقافات الأخرى بحيث لا تتلقى ثقافة ما غيرها من الثقافات كما هى بالفعل، بل تتلقاها كما يجب أن تكون لصالح المتلقى، ويلاحظ العظم أن سعيد لا يشجب عمليات التدجين والتحويل والتشويه التى تجريها الثقافات المتلقية، وتفرضها على الثقافات الغربية "في مستوى الوعى والفكر أولا ثم في مستوى العقل والممارسة لاحقا" وذلك يدفع العظم كما دفع غيره لوصف نظرة وتحليلات وتأويلات سعيد بالمثالية، هذه النظرة المثالية التى في مجملها تفسر المنحى الذى نحاه إدوارد، تفسيرا واضحا وجليا، وهذه المسائل والملاحظات تتلخص في:

١ـ القسوة التى تناول بها إدوارد محاولات كارل ماركس النظرية لفهم المجتمعات الآسيوية والشرقية عموما.

٢ـ الرفق واللين اللذين أبداهما عند تناوله معالجة كل من المستشرقين هارولد جيب وماكدونالد للإسلام.

٣ـ التعاطف الكبير والمديح الشديد اللذين عبر عنهما عند تناوله للتأويلات الروحانية ـ الصوفية للإسلام ومجتمعه وثقافته التى اشتهر بها لوي ماسينيون ومدرسته في الاستشراق.

ويأخذ العظم سعيد بالشدة عندما يقرر "أن تصور الغيب هو أكثر حضورا وواقعية بالنسبة للشرقى مما هو بالنسبة للشعوب الغربية".. وأن الفارق الذى يميز العقل الشرقى (عن الغربى) لا يكمن في سرعة تصديقه للأمور الغيبية بل في عجزه عن بناء نظام للأشياء المشهودة.

ونلاحظ أن العظم ينتقد سعيد من خلال ملاحظته السالفة والتى ساقها فيما بعد ولا تختلف من حيث الكيف كثيرا عن الأفكار السابقة، ويجمل بجملة واحدة: إن سعيد محكوم بنظرته المثالية المحكومة سياسيا وفكريا بموقعه المرموق في السياق الغربى، ثم إن كل كتابه "الاستشراق" أو جل هذا الكتاب لا يقدم إلا تحسينا لشروط التبعية الشرقية للغرب، بل من مناهضتها، أو إدانتها، أو السعى من أجل تدميرها، وينهى العظم بحثه حول استشراق إدوارد سعيد، بأنه ـ أى سعيد ـ ختم كتابه على الطريقة الاستشراقية الكلاسيكية النموذجية، عندما لم يجد ما يبعث على

الأسى أبدا في علاقة التبعية الفكرية والسياسية السائدة بين الشرق (الشرق الأوسط) والغرب (الولايات المتحدة)، وعندما قدم نصيحته إلى صانعى السياسة الأمريكية وخبرائهم واختصاصييهم حول أفضل الأساليب لتمثيل الأسس التى يمكن أن تستند إليها التوظيفات الأمريكية في الشرق الأوسط وأفضل الطرق لتحسين شروط علاقة التبعية المذكورة.

أيا كان من ملاحظات وانتقادات ومآخذ على كتاب "الاستشراق" لإدوارد سعيد، فإنه سيظل مثيرا للجدل العميق، والأسئلة الحقيقية التى لابد وأنها تنسحب على كل الأحداث الجارية بين الشرق في عمومه وفى جزئياته ومستويات ظهوره، والغرب في جبروته وطغيانه، ومستويات تحليلات طبقاته وأنظمته.